

الخيال الطارق

للدكتور طه حسين

التي أملت بك فازعجتك عن دارك ودفعتك الى ما تحاول من فراق القاهرة . فقلت أرى بأساً بهذا الرحيل فقد طال مقامك في حديثنا ، وقد احتملت من الجهد والعناء في عملك ما يعنى الأصحاء الأقوياء ، فكيف يرحل عليل ضئيل مثلك ، فارحل مصاحباً ولكن حدثني عما ألم بك من الهول ؟ قال مصدره رسالة الغفران ياسيدى ، فليت أبا العلاء لم يكتب رسالة الغفران ، قلت لا تقل هذا ولا تكن أنراً ، فان لغزرك في رسالة الغفران لذة ومتاعاً ، وإذا كانت قد سلطت عليك الهول الذى لم أعرفه بعد ، فاتها قد أتاحت لقوم آخرين في الشرق والغرب من الشهرة وبعد الصوت ما لم يسلط عليهم هولا من الأهوال ، ولم يفزعهم خطبا من الخطوب . ولكن هات حديثك . قال : ما أشك في أن أبا العلاء كان مجنوناً حين كتب هذه الرسالة . قلت رب جنون خير من العقل ، ولكن هات حديثك . قال : أتذكر هذا السخف الذى أغرق فيه إغراقاً حين ذكر هذين البيتين القديمين من شعر النمر بن تولب :

ألم بصحيتى وهم هجوع خيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهى عسلاً مصق إذا شاءت وحوارى بسم

قلت هذا من خبر ما في الرسالة ، وأى بأس عليه من أن يفترض أن الشاعر قد وضع مكان حصن في البيت الأول اسماً آخر كجزء أو شخص أو عمرو ، ثم يلائم بين هذا الاسم وبين القافية في البيت الثانى ، فهذا نوع من العبث المباح الذى لا يسوء أحداً ، وهو مع ذلك يدرب الناكرو ويظهر شيئاً من المقدرة اللغوية التى يحرم العلماء والأدباء على اظهارها . قال أنت الذى يزعم أن هذا العبث لا يسوء أحداً ، وما رأيك في أنه قد سادنى وجشمنى ما رأيت وما لم تر من الأهوال والخطوب . فقد أراد من الخط أن أنظر في هذا الكتاب ، وإن أهدت هذا العبث ، فأفكر في هذه الخيالات التى كانت تلهو المحبين والشعراء منهم بنوع خاص ، والتي كانت اذا طرقت هؤلاء الشعراء انطقهم بما تعرف وما لا تعرف من رائع الشعر ورائع الكلام . وأغرقت في هذا التفكير وجعلت استعين بالذاكرة على استحضار شئ من الشعر القديم الذى قاله الشعراء في الخيال للطارق والظيف الملم . ثم جعلت اسخر من أبى العلاء ومن جفلة طبعه وخشونة مزاجه ، وجعلت أرتى لأم حصن هذه التى يحبها الشاعر بها هذا العبث

أقبل صاحبي وجه النهار مرتاعاً حائل اللون ، شاحب الوجه ، خائر الطزف ، طائر اللب ، كأنما ألم به طائف من الجن فروجه ترويعاً ، وأخرجه عن ذلك الطور الهادى الرزين الذى كنت أعرفه منه اذا لقيته فتحدثت اليه ، واستمعت لاحاديثه الملهمة العذبة الحصبة . أقبل مرتاعاً لا يكاد يبين اذا تحدث أو هم بالحديث ، بل لا يكاد يستقر في مجلس ، بل لا يكاد يسلك جنته من رعدة كانت تلم به من حين الى حين فتهز هذا عتفاً ، وتذكر بقول ذلك الشاعر القديم واني لترونى لذراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر وأشهد لقد انفتحت كثيراً من الجهد ، واصططعت فتونا من الخيلة ، لارده الى ما ألفت فيه من دعة وأمن وعدوء ، ولقد افتقدت في تلك الساعة بعض هؤلاء الشيوخ الذين يتلون العزائم والرقى ، بعد أن أخفقت أو كدت أخفق فيما كنت احاول من رده الى الوقار والصواب . ولكن ظفرت آخر الامر بما كنت احاول ، واستطعت أن أتحدث الى صاحبي ، وأن أسأله عن مصدر هذا الاضطراب العنيف الذى أصابه وما عرفته عرضة لاضطراب يصيب العقل أو يصيب الجسم . قال وهو ذاهل أو كالداهل : إثم هذا على أبى العلاء أيها الصديق ، فلولا اننى نظرت في كتاب من كتبه آخر الليل ، لأذود به هذا الأرق الذى ألم على الحاحاً لما أصابنى ما نرى ، بل لما أصابنى ما لم تر من تلك الأهوال التى أملت في ، واصططحت على حتى تفرقت من دارى وأزعجتني عن أهلى ، ودفعتنى اليك في هذه الساعة التى لم أتعود أن اسمى فيها اليك . وثق بانى قد خرجت من دارى معتزماً ألا أعود اليها ، وقد أمرت أهلى أن يلتمسوا لنا داراً أخرى ، وأزمت الرحلة عن القاهرة اياماً ، حتى اذا تم لهم ما أريد من التحول عن هذه الدار الموبوءة ، عدت اليهم في دارنا الجديدة ، لعل أن أجد فيها ما انا في حاجة اليه من الدعوى وراحة البال . قلت ما أراك إلا مريضاً تحمل مرضك على أبى العلاء . وتمكف من ذلك ما لم يقترف ، وتمكف أهلك من آثار هذا المرض شظلاً . ومع انى لم أعرف بعد هذه الأهوال

فلم يترك اسمها حيث وضعه النمر بن تولب ، وإنما حذفه وأخذ يضع مكانه أسماء أخرى بمدد حروف المعجم ، ولو أنه كان رقيق القلب دقيق الحس ممتاز الشعور رقيقا بالغائيات لما أزعج أم حصن عن مكانها ، ولما اقلعها عن موضعها ، ولكنه رجل غليظ لا علم له بالحب ، ولا حظ له من الرقة ، ولا معرفة له بمحسن معاشره النساء .

وإني لفي ذلك وإذا أنا أحس كأن الأرض تدور تحت قدمي ، وكأن كل شيء يضطرب من حولي ، ولا أكاد التفت إلى ذلك وأفكر فيه حتى يبدأ من حولي كل شيء ، وإذا شخص جيل قد قام مني غير بعيد ، وهو ينظر إلى نظرة عطف ، وعلى وجهه غشاء من كآبة حلوة ، وعلى ثغره ابتسامة كأنها ابتسامة الرضى ، ولكنني لا أعرف شيئا أصدق منها تصويرا للحنن والامسى ، وتميلا للوعة والحسرة ، ولست أدري كيف لم يرعني مقام هذا الشخص الجليل ، فلم أظهر فزعا ولا اضطرابا ، وإنما أنست إليه وحقت النظر فيه فبينت فتاة غضة الشباب رائحة الجمال ، لولا أن شبابها يوشك أن يكون وهما ، ولولا أن جمالها يوشك أن يكون خيالا ، بينت شخصا حيا متحركا نضيرا ، ولكنه على ذلك لا يخلو من شيء يشبه الموت ، ومن شيء يشبه السكون ، ومن شيء يشبه الذبول . وهو على هذا كله يذكرني بشخص كنت آلفه وبألفني ، وكنت أكبره ويكبرني ، وقد قدته منذ حين ، لجرعت عليه جزعا شديدا ، وكثيرا ما سألت نفسي أتراها قد ذكرتني قبل أن تلج باب الموت .

وإني لأنظر إلى هذا الشخص المائل ، وإن هذه الخواطر لنمر أمام نفسي وادعة كأنها السحاب الرقيق ، وإذا أنا اسمع صوتا رقيقا خافتا حلوا يسمى إلى سعيًا خفيا من ناحية هذا الشخص المائل غير بعيد . وإذا هذا الصوت يحمل إلى تحية عذبة هي التي كنت اسمعها من صديقتي حين كنت ألقاها وجه النهار ، وما أكثر ما كنت ألقاها وجه النهار . أصبح بخير ياسيدي . فأجيب أصبح بخير ياسيدي . انك تعرفني أو تكاد تعرفني ، انك تذكرني وتسال نفسك الآن كما كنت تسألها من قبل ، اذ ذكرتك حين فارقت الحياة وودعت الأحياء ، نعم ياسيدي قد ذكرتك والمحبت في ذكرك ، وكلفت من بقرأ تحيتي عليك ، ولولا الحياة لكلفت من يدعوك لزيارتي قبل أن أموت

ولكنني لم أقفل ، ولم يعرض على ذلك أحد من الذين كانوا يحيطون بسرير الموت ، على أني لست آسفة فاني لم أخسر شيئا ، لأنني لم أفارق أحدا من كنت أحب لقاءهم في تلك الحياة ، إنما أنا أراهم وأسى بينهم وأتحدث إلى نفوسهم وأسمع منها ، وكل ما قدته إنما هي هذه الأصوات التي كنت اسمعها ، وهذه الأيدي التي كنت أصافحها . وثق بأنها لا تعدل شيئا حين أقيسها إلى ما أسمع الآن من أحاديث الضمائر ونجوى النفوس . وما كنت لأتأمرى لك الآن لولا أنك اغرقت في ذكر الخيال واستحضار الحيات . ولست أخفى عليك أني كنت أريد حين تراءيت لك أن أداهلك بعض الشيء ، فلا تظن أن الدعابة مقصورة على الأحياء ، فقد يأخذ الموتى من الدعابة بنصيب أيضا . كنت أريد أن أراهم لك على أني أم حصن صاحبة النمر بن تولب ، وإن أشكر لك عطفك على ورقك في ولومك لابي العلاء . ولكنني لم أستطع أن أخدعك لأنني لم أعود خداعك أثناء الحياة . ثم لأنني إنما أقبلت إلى هذا المكان لأنني في روعك رسالة كنت أريد أن تبلغها عني ، وكنت أريد أن ألقيا إليك كما تلقى الرسائل إلى الناس في الأحلام ، ولكنني رأيته يقظان تنظر في هذا الكتاب فانتظرت لعل النوم أن يسعي إليك ، ثم رأيتك تذكر الخيال وتستحضر الأحياء فراءيت لك ، وهل أنا إلا خيال أو طيف ؟ لا تطل النظر إلى ولا تقل شيئا فإن نظر الأحياء يؤذيني ، وإن أصوات الأحياء تنقل على ، راسكن اسمع مني وتحدث نفسك إلى إذا لم يكن لك بد من حديث ، وإني لأعلم أنك تريد أن تسألني كيف أتحدث إليك بصوت يشبه صوت الأحياء ، واشفق مع ذلك من سماع صوتك فانا لا أتحدث إليك بصوت يستطيع غيرك أن يسمعه ، إنما أنت الذي يمنع هذا الصوت قوته وتشخيصه ، ولو أن في هذه الفرقة قوما غيرك لما رأوا من شخصي مائري ، ولما سمعوا من صوتي ما تسمع ، ولكن اصغ إلى فاني أحس مقدم النهار ، وإني أكره هذا الضوء الذي يغمر الكون حين تشرق الشمس ، والذي كنت أحبه أشد الحب أثناء الحياة ، والذي لم أحزن على شيء حزني على فراقه قبل أن أموت ، والذي لم أتسل عن شيء كما تسليت عنه الآن . اصغ إلى فاني أريد أن ألقى إليك رسالتي ، وإن أنصرف عنك